المحاضرة الأولى: التفاعل والاتصال الإنساني

تمهيد:

أن عالم الإنسان الاجتماعي هو عالم تفاعل واتصال Interaction واتصال Communication، لأن العلاقات التي تربط البشر تبدو جامدة إذا اكتفينا بتحليلها من زاوية البناء الاجتماعي Social structure. بما فيه من نظم أو أنساق system ووصف العلاقات بنائياً يظهر المراكز Statuses التي تعتمد عليها بما تنطوي عليه من تحديدات بنائية شكلية. فالبناء الاجتماعي كما يوضح "رالف لنتن" يتألف من مجموع المراكز أو المكانات الاجتماعية.

ولذلك ولكي تبرز الطبيعة الحركية لهذه العلاقات أو الروابط الإنسانية، فإن من الضروري الكشف عن جوانبها الفاعلة من خلال الأنشطة التي تنتظم أفراد الجماعة أو المجتمع في حياتهم اليومية الدائبة. ويجري هذا الكشف إذا استعنا بالأدوار الاجتماعية Social Roles بوصفها تجسد الوجه الحركي للمراكز التي يشغلها الأفراد. كل هذا يؤدي بالضرورة إلى طرق "موضوع التفاعل والاتصال" الذي يمثل الميدان غير المحدود الذي تترجم فيه الأفراد بعضهم ببعض في صيغ التكافل والاعتماد المتبادل لبلوغ الأهداف الفردية والاجتماعية المشتركة.

والتفاعل الذي يعنيه طلبة- الحضارة- الثقافة Culture والمجتمع Society هو مظهر مزدوج، بوصفه يتناول الوجود المادي للناس بما يحتويه من واقعهم البايلوجي وما يتصل به من احتياجات حيوية، أما الجانب الآخر الذي يتناوله التفاعل فهو الجانب الاجتماعي- النفسي Socio-

Psychological وواضح أن الجانب الأخير للتفاعل ينطوي على الجزء الأكبر والأعقد من مشكلات البحث السوسيولوجي والحضاري. ومع ترابط عناصر المجالين البايولوجي والسوسيولوجي- النفسي في الواقع البشري، إلا أن السمات الاجتماعية النفسية لسلوك الإنسان تمثل مستوى ارفع واكثر تجريداً ان المستوى الاجتماعي لحقائق السلوك يفرض نفسه على أذهاننا بالنظر إلى ارتباطه بوحدة الإنسان "النظم الاجتماعية Social systems" كالنظام الروحي والقرابي والتربوي والسياسي والاقتصادي والترفيهي. ولا يخفى أن هذه الوحدة تدفع الباحثين إلى إيجاد الصلات المشتركة بين مواد البحث المعبرة عن تكامل أبعاد السلوك المتمثلة في وضعيات التفاعل والاتصال. فالعناصر التي تبرز في واقع السلوك التفاعلي لا تكون في حالة تبعثر بل هي في حقيقة الأمر حصيلة ترابط هذه الأنساق أو النظم في كيان أو تركيب تنظيمي موحد يجسده البناء الاجتماعي الكلي.

ولا يقصد بالطابع المجرد للعناصر الاجتماعية في ميدان التفاعل أنها محض خيال أو تصور ميتافيزيقي Metaphysical imagination يمارسه الباحثون الاجتماعيون، بل هي أمور تجسد جوانب من الواقع تصعب رؤيتها إلا على أهل الاختصاص بحكم خلفياتهم النظرية والمنهجية التي تؤهلهم للنفاذ إليها، واستخلاص ما يكمن فيها من معان واتجاهات وعمليات تعبير.

وهذا التشديد على الجوانب السوسيولوجية والنفسية للتفاعل يقود بشكل أو بآخر إلى ميدان الرمزية symbolism الذي اتسعت اهميته في العقود القليلة المتأخرة. فلا مبالغة في القول بأن معظم الظواهر التي يلاحظها الباحثون الاجتماعيون تتضمن السلوك الجاري بين الأفراد في الجماعة أو المجتمع أي

تفاعلهم واتصالهم المتبادل بما يرافقه من استجابات يظهرونها إزاء بعضهم البعض. أما عناصر السلوك التي يسعى الباحثون إلى تحديدها فتستخلص عادة من الرموز symbols التي تعبر عنها "أي العناصر" بصورة غير مباشرة.

فالوسائل الرمزية التي يستعين بها الإنسان تتعدد وتتنوع وهي تشمل على التخاطب "speech"والكتابة والإشارات الوجهية والجسمية والعلامات المختلفة المستعملة من قبل الناس لغرض إيصال بعض الأفكار أو المعاني عبر علاقاتهم بالآخرين. وهذه الوسائل الرمزية في المجتمع الواحد تتسم بالنمطية أو التناسق Standardization الذي يسهل على الأفراد إدراك هذه المعاني بناء على القوالب الذهنية Stero types المشتركة التي تتحول إليها هذه المعاني مع مرور الزمن في فترة التنشئة الاجتماعية.

أن الرموز وما تحتويه من أفكار ومعان تمثل الركائز التي يعتمد عليها الاتصال والتفاعل الإنساني كما يهتدي بها الأفراد صوب أنماط السلوك المطلوب. كل هذا يظهر استحالة فصل الرموز عن السلوك الإنساني وعن حتمية التفاعل والاتصال القائم لدى الجماعات أو المجتمعات البشرية. ولهذا يصح القول بأن (الحقائق الاتصالية) Communicational Facts تمثل جوهر السلوك الاجتماعي في وضعيات التفاعل اليومي في المجتمع.

إن الرموز هي أطر مرجعية Frames of reference تنظم عملية الإدراك الذهني إزاء ظواهر واقع التفاعل الحاضر فضلاً عن أحداث وملابسات الحياة الاجتماعية الماضية. فالسلوك الاجتماعي لا ينحصر في لحظة زمنية معينة، كما لا يعتمد على الوجود الحقيقي للأشياء التي ترتبط به أو تمثله ومن هنا تظهر أهمية الرموز، إذ أنها تحرر السلوك من هذه المحدودية والانحباس

إلى آفاق اجتماعية وحضارية ارحب وبهذا تغني الرموز الإنسان عن أتيان الحوافر المادية المباشرة بوصفها البدائل التي تمثل الحوافز وهي لهذا تتضمن ردود فعل سلوكية مماثلة لتلك التي تنتجها تلك الحوافز.

ولا يقتصر أثر الرموز على التفاعل الاجتماعي في صورة التكرارية المستمرة على نمطية واحدة بل بتعداه إلى مجال التحولات الاجتماعية والنفسية للسلوك التي تصاحب انتقال الفرد من مرحلة إلى مرحلة أخرى عبر دورة الحياة التي يقطعها Life cycle ويتضح دور الرموز الأخير في طقوس الانتقال أو المرور Rites of Passage التي تجري للفرد في كل واحدة من هذه المراحل المتعاقبة التي تجتازها عند ولادته وبلوغه سن اليافعين فالزواج، فدخول مرحلة الأمومة أو الأبوة، ثم وصول سن الشيخوخة فالموت.